Life and Psychological Phenomena in the Poetry of Hani Abu Mustafa

Researcher: Abdul Munim Abdul Jabbar Kazem Al-Hasan
University of Basrah / College of Education / Al-Qurna
E-mail: qedupg.munam.jabbar@uobasrah.edu.iq

Professor Doctor Sabah Abdul Reda Issyoud
University of Basrah / College of Education / Al-Qurna
E-mail: Sabah.albasher@uobasrah.edu.iq

Abstract:

This study attempts to read an important phenomenon among the mystical phenomena in the poetry of Hani Abu Mustafa under the title: *Life and Psychological Phenomena in the Poetry of Hani Abu Mustafa*. It approaches two prominent phenomena in the poet's work: *withdrawal from life* and *intense feelings of anxiety and alienation*, considering them as emanating from a single mystical spirit whose goal is unity with the sacred divine self. Consequently, this leads to receiving divine emanations, which results in manifestations of God's power. This is the hope and ultimate goal of the mystic in striving against the self.

Keywords: Life, psychological phenomena, Hani Abu Mustafa, withdrawal from life, intense feelings of anxiety and alienation, mysticism.

الحياة والظواهر النفسية في شعر هاني أبو مصطفى(*)

الباحث :عبد المنعم عبد الجبار كاظم الحسن **الاستاذ الدكتور صباح عبد الرضا إسيود**

جامعة البصرة / كلية التربية / القرنة

E.mail: Sabah.albasher@uobasrah.edu.iq E-mail: qedupg.munam.jabbar@uobasrah.edu.iq

الملخص:

هذه محاولة لقراءة ظاهرة مهمة من الظواهر الصوفية في شعر هاني أبو مصطفى تحت عنوان: (الحياة والظواهر النفسية في شعر هاني أبو مصطفى), من خلال المقاربة بين ظاهرتين بارزتين في شعر الشاعر هما: (الانسحاب من الحياة) و (الإحساس العنيف بالقلق والاغتراب)؛ باعتبارهما يصدران من نفس صوفية واحدة, غايتها التوحد في الذات الإلهية المقدسة؛ ومن ثَمَّ تلقي الفيوضات الإلهية, مما يفضي إلى أن يكون صورة من صور تجليات قدرة الله تعالى, وهذا هو أمل الصوفي وغايته من مجاهدة نفسه.

الكلمات المفتاحية : الحياة، الظواهر النفسية, هاني أبو مصطفى, الانسحاب من الحياة, الإحساس العنيف بالقلق والاغتراب, التصوف.

* بحث مستل من رسالة الماجستير الموسومة : **ملامح التصوف في شعر هاني ابو مصطفى** .

المقدمة:

يعد الشاعر هاني أبو مصطفى[1] واحدا من الشعراء العرب الذين تفردوا بأسلوب خاص وسمت شعري يعود في تجلياته كلها إلى التصوف, وهذا ما يشد الانتباه إليه ولا سيما بأسلوبه المميز وطرحه الذي يعود بنا إلى ما ساد في الشعر العربي في أزهى عصوره ولا سيما في العصر العباسي حين برز شعراء يتوجهون إلى إصلاح المجتمع بعدما انحرف آخرون نحو الغناء والغزل الماجن والفحش, فكان التصوف سبيلا لمحاولة العودة إلى الطريق السوي. وكما يبدو فهذا ديدن شاعرنا (هاني أبو مصطفى), الذي هاله ما ارتمى فيه الوطن من منغصات سياسية واجتماعية, فبرز ببراعة ليسد فجوة أو فجوات كادت أن تماثل ما ساد في العصور السابقة.

وبلا ريب فأن للحياة انعكاسا واضحاً على كل مسلك يسلكه الإنسان في حياته ، وكل غاية ينتجها أو يتجه إليها؛ ولاسيما عندما يكون ذلك الإنسان شاعرا؛ فالشعراء أشد الناس ارتباطاً بالحياة، وقدرة على التعبير عنها، وعن جملة ما فيها من ظواهر نفسية واجتماعية تشكل رافداً من روافد الإنتاج الإبداعي لدى الشعراء، بل تؤثر تأثيراً بالغاً في خصائص نظمه وسماته الدلالية، أما الحالات الإنسانية التي تتسم بالفرادة كالحالة الشعرية لدى الشاعر الصوفي، فيجب أن تكون محل نظر؛ لأنها تعبير صادق عن ضمير الشاعر الحي، وانعكاس لظاهرة إنسانية كونية جاذبة للانتباه. وستكون الظواهر النفسية والاجتماعية التي أسهمت في إنتاج دلالات بعض النماذج والنصوص بمثابة إعادة تشكيل لمعاني بعض الخطابات الشعرية عند الشاعر هاني أبو مصطفى في هذا البحث في دائرة الضوء على أن يكون تحليلها تحت مبحثين هما:

المبحث الأول: الانسحاب من الحياة.

المبحث الثاني: الإحساس العنيف بالقلق والاغتراب.

المبحث الأول: الانسحاب من الحياة:

لعل من نافلة القول التأكيد إن لكل شاعر نفساً يفيض شوقاً إلى ما يحب ، فيملأ الحياة نوراً وتنعكس على صفحته رغبته في التعايش مع الآخر، ذلك التعايش الناتج عن ضرورة تفاعله معه، وفي حالة افتقاد الإنسان لمقوم من مقومات التعايش والتفاعل مع الآخر فإنّه يؤثر الانسحاب من الحياة مفضلاً الانغلاق على ذاته، واعتزال ما يلحق به الضرر النفسي والعاطفي. هذا ما نجده عند الشعراء الرومانسيين الذين آثروا الانعزال والانطواء بعيداً عن الناس، أما الشاعر المتصوف فقد اختلف عن الرومانسيين مع أنه انزوى عن الناس وحتى الحياة، لأنه ولشدة حساسيته تجاه الأشياء نجده من أكثر الناس تأثراً بما يقع له وللناس في مجتمعه، ومن ثم فانه أكثر الناس إيثاراً للانسحاب من الحياة. ولا سيما بعد معاناته الذاتية والسياسية التي أوصلته إلى تعرضه للأذى بمختلف أشكاله؛ وفي ظل تداعيات الحياة واستدعائها لمختلف

مظاهر الابتلاءات في الوطن والنفس والمال وغير ذلك. ولعل ذلك يتفق وما أشار إليه الجنيد في قوله: " مذهبنا إفراد القدم عند الحدث ، وهجران الإخوان والأوطان ، ونسيان ما يكون وما كان"[٢]؛ لأنهم بكلمة موجزة يؤثرون الله تعالى على كل شيء. ولشدة حساسية الصوفي تجاه الأشياء نجده من أكثر الناس إيثاراً للانسحاب من الحياة، واستدعائه لمختلف مظاهر الابتلاءات في الوطن والنفس والمال وغير ذلك, على الرغم من ذلك "شجع الوضع السياسي والاجتماعي والديني الذي أوجده الأمويون على إنشاء طبقة من الشعراء المتمردين, ..."([٢])

ولعل الشاعر هاني أبو مصطفى من أكثر الشعراء المعاصرين ميلا إلى النفس الصوفية التي يحملها الشاعر بين جنباته، وهو أكثر توقا إلى الانسحاب من تحت مظلة الحياة البائسة التي يعيشها المخلوق بمعزل عن الخالق، بيد أن ذلك لا يعني أن الذي يحرك فكر الشاعر وتوقه إلى الانسحاب إلى المظلة الدينية فحسب بقدر ما يعني توجسه من مجسات الحياة النابضة بالألم على الصعيدين الشخصي والسياسي العام، ولا سيما بعد الأحداث المهولة التي ألمت بالواقع العراقي الحديث، إذ نجد صدى ذلك يتردد كثيرا في مفاصل قصائده ومقطوعاته، فهو يخاطبنا في كثير من نصوصه بعبارة قد تحتاج إلى استبطان معانيها الدالة عليها؛ لعمق ما فيها من مفاهيم صوفية، وهي تحيل على إيثاره الانسحاب من الحياة، و قد صرح في إحدى قصائده برغبته في بالانسحاب من الحياة، في قوله:

أنا يا صديقي هارب
من سعادتي
إلى ذلك الحزن الذي ليس ينتهي
لِأُعلِنَ بين الناس
عن سر عشقنا
وعن كل
معناك الذي في تألُّهِي[٣]

السمة الغالبة على هذا النص تتمثل بما أفاده الشاعر بقوله: "أنا يا صديقي هارب" فهو إخبارٌ صريحُ عن عدم احتماله البقاء تحت مظلة هذه الحياة وهذا الكابوس الذي يعيشه. في معزل عن السر الذي يناجي به الذات المقدسة التي يتطلع للذوبان فيها والانسحاب من أحداث الحياة البائسة إليها، بغية إيجاد نفسه المتلهفة إلى الاتحاد مع تلك الذات العلية، وبما لا ينفي رغبته في الانسحاب من الحياة وهروبه من السعادة التي أخبر عن هروبه منها بقوله :

"أنا يا صديقي هارب من سعادتي" فليس من المنطق أن يهرب إنسان عاقل من السعادة ، بل إنّ الهروب دائماً ما يكون بسبب البؤس والشقاء, والرحيل يكون في إثر السعادة والبحث عنها؛ غير أن هنالك

معنى قائماً في نفس الشاعر يتطلع إلى تحقيقه والاستدلال عليه، فالسعادة التي يهرب منها هنا هي السعادة المؤقتة الدنيوية، والسر الذي يكمن وراء انسحابه منها يؤدي به إلى سعادة أخرى أو من نوع آخر إلى سعادة أخرى؛ سعادة دائمة وأبدية يتنسم فيها الحياة الخالدة بفنائه في ذات من يُحِبّ وهو الله جل في علاه، ولذا نراه يحيلنا على علة الوجود ومصدر الحياة السعيدة التي يتشوق إلى العيش فيها بقوله : "لِأُعلِنَ بين الناسِ عن سِرَ عِشقِنا ..."

فالسر الذي يتطلع لإعلانه بين الناس هو ما قاده إلى الانسحاب من الحياة التي تجمع له أسباب السعادة المؤقتة، معلناً أنه يسعى إلى الغوص في سعادة تعرف سر الوجود العرفاني الذي يذيب المحب في حبيبه، "ففي كل شيء يحضر الله، أي الإحاطة لا الحلول، إحاطة الله بكل شيء لا بمجانسة ولا بمماسة ، فهي لمجرد تقريب الحقيقة،..."[٤] ، مما يتيح له العيش الآمن في ذاته التي تحمل معاني التأله. وبذلك فإن المفارقة التي أوقفتنا عندما وجدناه يهرب من السعادة قد انحلت رويدا رويدا عندما بيّن لنا تطلعه وشوقه إلى خالقه.

ومن الأمثلة التي تحيل إلى نزعة التوحد المستغرقة لذاته والدافعة به نحو التراجع عن التعايش مع الآخرين والانسحاب من الحياة الدنيا قوله:

جنّ عقلي
كلنا نجهلُ أسرَ
الحقيقة
ونريد الله من دون
الطريقة
كيف لي منك أتعطيني الوثيقة
نحن من عالمهِ والفعلُ فعلي
جنَّ عقلي
ليس في الكون سوى
الله تأكد
وأمام القول يا
هذا تجمَّد
ربما السير له من يتعدد
فهو ذات الكل
لا تُفتِ بقتلي[٥]

فليس يعني إغلاظه لِمَنْ يتخطى حقيقة وحدانية الله مع تعدد الطرق الموصلة إليه، ولومه عليه اعتقاده غير ذلك كأنه يتماهى معه، بل هو سائر في طريقه منفرداً يعزف على أوتار حزنه، لأنه يشعر بأن مخاطبه لا يعطيه حقه في العيش جنباً إلى جنب معه، والحزن هنا نتيجة طبيعية للاضطراب والحيرة الداعيين إلى ثورة الشاعر وتمرده على واقع مر يعيشه ، فيفضي به "إلى الاحتراق اشتياقاً إلى عالم جديد"[٦] ، وهذا ما ذهب إليه الدكتور زكي نجيب محمود عند إشارته إلى صورة مماثلة لتلك الصورة، مما يعني أن الشعراء المتصوفة ينهلون من معين واحد. ومن توبيخه الذي يشعر بمدى انعزاله ورغبته في العيش الآمن وحده بعيداً عن الخلق في معية الخالق ، نفيه معرفة أسرار الحقيقة التي يجعل منها كائنا طبيعيًا من وجهة نظر الناس، فالسر المخبوء في انسحابه وطلبه للانفراد بذاته في صحبة خالقه سبحانه ما هو إلا نتيجة لرغبته في معرفة الطريقة التي تؤمن له التعايش في أوساط الناس. وذلك في قوله: " نريد الله من دون الطريقة " وهو يرى أن ذلك لا يكون إلا من خلال اتباع الرياضات الروحية التي توفرها (الطريقة) التي يقصد بها الطريقة الصوفية عموما والطريقة الكسنزانية التي ينتمي هو إليها بصفة خاصة[٧]. وهذا تصريح مباشر بما يعتقده هو ويؤمن به، ويؤكد هذا في أبيات كثيرة ولا سيما قوله: "نحن من عالمه والفعل فعلي ..." مؤكداً وحدة عالمه الذي يعيش فيه غريبا منسحبا من التعايش مع أهله لاجئا إلى عالم الله تعالى، غير أن فعله الشائن لا يمكن أن ينسب إلى الله تعالى، بل هو فعله هو، وتحيلنا عبارته "ليس في الكون سوى الله تأكد" إلى مضمون تلك العلاقة التي دفعت به إلى الانسحاب من عالم الخلق والانغماس والرسوخ في عالم الخالق؛ لأن وجوده فيه يحقق له الغاية المرجوة من الفناء في عالم الخالق[٨] ، وهو الأنس الذي يفتقده في صحبة الخلق.

وهو في هذا النص يزاول الأمل القديم في البقاء والعيش الحر في وطنه بعد أن فقد مقومات البقاء في الحياة الحاضرة، فأراد الفرار منها إلى الماضي الذي ينسج خيوطه حوله، فلا يترك له متسعًا ليتنفس نسيم الوقت، ويقول هاني أبو مصطفى في نص آخر:

أحتاجُ ليلى التي كانت تُغَني لي
أحتاجُ أحزانَ أمّي
في المواويلِ
أحتاجُ ما ضاعَ من عُمري
فلستُ أنا
مَن أبعدَ الليلَ عن ضوءِ القناديلِ[٩].

يظهر للوهلة الأولى أنَّ حاجته إلى الحب الذي دلَّ عليه بتوظيفه الاسم الأكثر شيوعًا في التعبير عن الحبّ، وهو اسم (ليلى)، وحاجته إلى نزعة الأسى المنبثقة من الحزن الذي كان يحسه في مواويل أمه، لم

تكن لمجرد إبراز الحاجة إلى تلك الأشياء فحسب، وإنما يكون حنين الإنسان إلى الحب والحزن تعبيرا صادقا عن مرادفات تلك الأشياء في الوجدان، فالإنسان لا يشعر بحاجته إلى استعادة ماضٍ مفقود إلا حين ينسحب من ذلك الماضي مقرّرًا العيش منفردًا منكفئاً على الذات. ويبرز هذا التجاوز المعنوي للماضي والحاضر إلى الزمن المتوهم الذي ينسحب إليه ؛ فراراً من الأسى الذي يداهمه، في قوله:

وَكِدتُ أخرجُ عن طَورِي
وأشتِمُهُمُ
فأعرَضت عن تدابيري
أقاويلي
دَعهُم فَما تِلكَ أخلاقُ الزكي ولا
طَبعُ الدراويشِ أصحاب
التهاليل
إذن أنا الآن أعلى
من قساوتِهم
معي وأرفعُ من سوءِ التفاصيلِ(١٠)

معيدًا تشكل دورة الزمن لتتناسب مع الحالة الوجدانية التي يمر بها الشاعر، محققاً ذلك بمقاربة خروجه عن طوره وإعراضه عن تدابيره وأقاويله، تاركاً إياهم لانتقاء أدنى معايير الأخلاق السامية التي تبقيه معهم، فهو يتطلع إلى تحقيق "المثالية التي تجعله مع الله بحكم ما وجب ... ، ويكون وجداني الذات"(١١) ، ولمخالفة طباعه لطباعهم، فهو يشابه صفة الدراويش في حلولهم ورحيلهم وتحميدهم وتهليلهم، وهم على عادة البشر، يأكلون ويشربون وينفعلون بما ليس له عنده تأثير، وهذا من أبرز الدوافع التي أدت إلى انسحابه من حياتهم وتقريره العيش فيما لا يكون فيه إلا بمعزل عنهم متحدًا مع الله متفانيا فيه على شاكلة الصوفي الدرويش.

وفي مرة أخرى، يظهر لنا أن شدة تعبه من الحياة الدنيا ، وتجاوبه النفسي مع هذه الشدة ما يثير في نفسه الإحساس الدافق بالرغبة الجامحة في التخلي عن الوجود المادي والانسحاب من الحياة الفانية ، فيقول:

مشى الشعر...
والفنانُ ألقى مشاعره
إلى حيثُ لا يدري وكانت مُغَامَرَه
ولما رمى في كل صوبٍ قضيَّةً

مصوبةً نحو الوجوهِ المُكَابِره
تغيَر لونُ الماءِ واستلَّ طعمُهُ
وأسفرَت القيعانُ عن ألفِ خاطره
لقد حيل عن ليلى أكاليل خدرها
وأبدل قيس بعد ليلى بعاهره
فما كان من قيس سوى رفض عرضهم
و ما كان من ليلى سوى
الموت – صابره(١٢)

فمما لا يخفى في هذا النص أنه يحمل صورة نموذجية تعبر عن الحياة التي يرفضها الشاعر للأسباب التي أبداها فيها، بداية من مشي الشعر ومرورًا بإلقاء الشاعر لمشاعره إلى حيث لا يدري، وانتهاء بإبدال المحبوبة الطاهرة التي دلَّ اسمها على قدسية العلاقة التي تربطها بحبيبها، بامرأةٍ أخرى دنست قداسة هذه العلاقة. وقد شكل الشاعر صورة استعارية شبه فيها الشعر بإنسان له قدمين يمشي عليهما نمطا من الهروب الذي تتدافع فيه الرغبة في البقاء مع الرغبة القوية في الانسحاب من تلك الحياة التي لم تعد تناسبه بعدما تغير كل شيء فيها، وتبدلت الأدوار بين أشخاصها فحل الفجور والسفور والانحلال محل القدسية والطهر والعفاف. وهو بذلك يبني من تلك الصورة البيانية دلالة تنم عن رغبته في الرحيل وترك هذه الحياة بكل ما تضمنته من أسباب الانسحاب فيرسم لنا بذلك صورة داخل تلك الصورة تفرز تأثيرها في الخطاب بما يفضي لإرادة الشاعر بالانكسار في مقابل إرادة الناس.

وقد تعرض الشاعر لمقصده في الخطاب هنا باستغلال صورة المرأة التي تضمن له الحديث عن عنصر الشغف والجذب، وبذلك فقد وقفت المرأة "في نصوصه بين ما هو إلهي وما هو إنساني"(١٣).

ولشدة وقع قصة قيس وليلى – بصفة خاصة– في النفوس العربية التي استمتعت كثيرا بأجواء هذه القصة فقد جعل الشاعر من تلك القصة مثالاً رمزياً, متناصا بذلك معها؛ فإنَّ "للتناص الأدبي دورا مهما في إثراء لغة النص الشعري ..." (١٤), مما يعكس تصوره عن الدنيا وأهلها، وما ينبغي عليه فعله تجاهها وتجاههم، فهم أقل من أن يفكر في العيش معهم والانفعال بأحداث حياتهم لفقدهم معيار التمييز بين ما ينبغي وما لا ينبغي، فمن لا يستطيع التمييز بين قداسة العلاقات ؛ وبين أسفلها لا ينبغي له أن يكون واحداً منهم، ويمكن القول إن تمثل الشاعر للمرأة مدعاة إلى إنتاج علاقة بين حب الرجل للمرأة وحب المتصوف لله، تلك العلاقة التي ترتكز "على القيام بحق المحبوب ومعرفة قدره"(١٤).

وقد ظهرت حكمة هاني أبو مصطفى في هذا النص مِنْ توظيفه المرأة ذات الدلالة على الإحساس العميق بالقلق والاغتراب، ولا سيما أن للشاعر أكثر من تجربة في هذا المجال أظهرت أحد أسباب انعزاله

وانسحابه من معترك الحياة وربما حتى من واقعه وحياته(*).

المبحث الثاني: الإحساس العنيف بالقلق والاغتراب:

لا نبتعد عن جادة الحقيقة والصواب عندما نشير إلى أن أغلب ما يؤرق النفس الصوفية أنها تنزع نحو القلق والتشاؤم. لأنها لا تتوافق وما يدور في الحياة الحاضرة أو المعاشة، ومن هنا تسلل شعور الوحدة والانعزال إلى ذات الأديب الذي يستميل ذاته عبر تهويمات تنطوي عليها نفس المتصوف، جراء تسلل شعور الوحدة والانعزال إلى نفسه ومطاردة فكرة الابتعاد إلى قلبه ووجدانه. وهنا يأتي دور الشاعر الصوفي في تحديد مقياس ما من مقاييس الدلالة على هذا الشعور الجامح الذي يفصل روحه عن الحياة المحيطة به، ويوقع في نفسه الإحساس بالغربة تجاه الخلق المبتعدين عن جادة الحق، وبما يقوده في نهاية المطاف إلى البحث عن الأنس مع الخالق سبحانه وتعالى "فرارا من ذلك الاغترار بالمنازل والهدايا والمناقب ... وسائر ضروب التجلي التي تشغل النفس عن الحضرة الإلهية التي يسعى إليها .."[١٥].

ومن أبرز ما يمكن أن نقف على شيوع جو الاغتراب والقلق النفسي والوجداني في شعر هاني أبو مصطفى، قوله:

كان الهوى شغلي وسر مواجعي
وبه بدأت مسيرة الأشجانِ
في الليلة الأولى التي من ضوئها
أبصرت طاف الحب حول كياني
في ذلك الوقت. القصير تغيرت – –
صور الحياة وزلزلت وجداني
أحببت منقبةً وما أحلى التي – – –
أحببتها هي عالمي الروحاني[١٦].

يعلن الشاعر عن برنامجه الصوفي في هذا النص ليدل على أنه ينطلق من حالة وجدانية وعاطفية لا يختلف فيها عن أبناء جلدته، بيد أنه يصرح في نهاية المقطع بأنه حب روحاني بعيد عن الجسد ومغرياته. وهنا يكمن بيت القصيد، إذ ينقشع غبار حبه عن عالم روحاني ينهل فيه من مصاف العذريين, ومن ثم من المتصوفة السابقين, على الرغم مما أشرنا إليه سابقا من أنَّ للشاعر أكثر من تجربة وجدانية واحدة، بل إنَّه يرى أنَّ أحد أسباب لجوئه لهذا التيار إحدى تجاربه الفاشلة في الحب(*). بحيث تبدو الصورة التي يرسمها الشاعر أمامنا مستندة إلى "دعوة للبوح بالحب ، المشاعر التي تشكل هاجس الصوفي الذي يؤرقه ويشد انفعالات قلبه المتلهف أبدا إلى عالم الله البعيد"[١٧]. وهذا يقترب كثيرا مع ما ذهبت إليه الباحثة مريم عبد

النبي عبدالمجيد في تحليلها لبيتين من شعر الحلاج. إذ يبدو شاعرنا قريبا من أولئك الشعراء الصوفيين الذين يصلون إلى عالمهم بسلالم بعيدة عن الجسد. وها هو شاعرنا هاني أبو مصطفى يقص علينا في النظم الرقراق حكاية سردية على شاكله الشعر القصصي الذي نلمس عناصر بنائه في شعر المتصوفة الأوائل أمثال الحلاج وابن الفارض وابن عربي وأمثالهم . إذ نجد في قول (هاني أبو مصطفى): " في الليلة الأولى التي من ضوئها أبصرت طاف الحب حول كياني" أنه يقترب كثيرا من الحلاج الذي يعد من أكثر الصوفيين "بوحا بما يجول في داخله من مشاعر كان يصعب عليه كتمها "[١٨] ، إذ نرى أنَّ هاني أبو مصطفى يصرّح بما يجول في خاطره ويحس به من حوله، فيعتقد أن هذا الحب الإلهي هو الذي جعله مبصرا بما حوله، لذلك تغيرت صور الحياة من حوله وزلزلت وجدانه؛ لكونه ينطلق من عالم روحاني لا متناهٍ بحيث يهبه الأنس الحقيقي مع الذات الإلهية. وبذلك تكون المرأة في شعر هاني أبو مصطفى مجرد عاطفة تستنطق الوجد والهيام وحسب، بحيث تتحول إلى لذة روحية يشعر بها ولا سيما حين يتخطى المرحلة البشرية ليغوص في عالم المكاشفات الصوفية "التي ترى الكون بعين النقص ، بل غض الطرف عن كل ناقص؛ ليشاهد من هو منزه عن كل نقص"[١٩] ، بحيث يتخطى هنالك مصادر الأرق والاضطراب الوجداني عندما يبتعد عن الخلق ويرتمي في التماهي والتفاني بحب الله سبحانه وتعالى. ويمكننا أن نلمح مكاشفته لعالم الحب الحقيقي المجرد عن نزعات البشر والنفس الأمارة بالسوء في قوله: "... التي من ضوئها أبصرت ... طاف الحب حول كياني" وفي قوله: "أحببت منقبة .. أحببتها هي عالمي الروحاني"، فكأنه يبرأ من خطيئة ارتكبها، ولم يجد ملاذا للخلاص من ذلك الوجد سوى أن يحوّل تلك القيمة الوجدانية إلى قيمة أعلى منها وأشد منها رقة لتكسبه طبيعة جديدة تتعارض مع الطبيعة البشرية التي تجلب إليه الشعور بالغربة والقلق والحيرة، ومع ذلك لا يزال يعاني من الشعور بالقلق والغربة؛ "لأنَّ الأصل في الأحوال الصوفية ألَّا يغلب على الأسرار مشاهدة المحبوب، لهذا خص هؤلاء بحال الاشتياق الذي لا يزول باللقاء[٢٠].

وفى نص آخر يستدعي فيه الشاعر روح المقاومة والتمرد الجامح الذي يعطل في نفسه الإحساس بدفء الاستقرار يقول:

يا جناح الذل اقطع عنقي.
أنا مذ أحببت هذا منطقي.
ولقد حاولت أن أخلو بها.
ذهبت أعمارنا ماذا بقي
بعد أن كابدت صبري في الهوى
وافق الليل على أن نلتقي[٢١].

فاستهلاله بالنداء بخطاب جناح الذل في قوله: "يا جناح الذُّلَّ ..." يستدعي هذا الشعور الدامغ بالأسى الذي يمزق روحه، فالصوفي لم يعتد الذل ولا الهوان مهما بلغ به الأمر؛ لأنه دائما ما يشعر بامتزاج روحه بالخالق تعالى. واستصحاب الحالة المنتجة لهذه العلاقة بالخالق تسمح بأن يستنسخ الصوفي من روحه روحاً تتجافى عن طلب الدنيا وتتطلع للحياة الخالدة، وذلك من خلال "كتم الشكوى وعدم إظهار أثر البلوى"[٢٢] ، ولذا نراه يكتم بلواه عن الآخرين اللهمَّ إلَّا لمناجاة الله تعالى والذوبان فيه. ومع ما يراه ويحسه في نفسه من أثر اللوعة والحسرة التي تفضي إلى شعور أحر منه على نفسه، وهو الشعور بمرارة الفقد إلى جانب تحقق اللقاء بعد الفراق الطويل حتى يحصل على ما يريد من تلقي الواردات الإلهيَّة التي تلهمه فهم حقائق الأشياء, ويتحقق له الأمل المنشود في اللقاء الذي يخفف عنه ألم الغربة والقلق الذي أنتجه البعد " ليعود من ثم بالمعرفة التي يتلقاها من الله مباشرة عند الكشف"[٢٣] ؛ فيخبر عن ذلك بقوله " :بعد أن كابدت صبري في الهوى وافق الليل على أن نلتقي" فينسب اللقاء الذي انتظره وارتقبه طويلاً مع محبوبه إلى الليل؛ وذلك لما يشكله الليل بأبعاده الانعزالية ودفقات الشعور الإنساني التي تتأرجح فيه بين الرغبة والرهبة للشاعر الصوفي من عوامل تجعله ملاذاً ينفرد فيه الصوفي بالحب الذي يختلج في خاطره تجاه الخالق سبحانه. إذ إنَّ كثيرا من القراءات النقدية لشعراء أعلام التصوف تشعر بأنَّ الليل "شرط في تمثلات الحضور بين يدي الله تعالى"[٢٤]. وفي ضوء ذلك ينطلق الشاعر هاني أبو مصطفى جاعلا لليل حق الإذن في اللقاء.

وفي صدد الحديث عن التنكيل الذي يلحق بالوطن الأم (العراق), وما عاناه العراقيون في زمن النظام البائد, وبالخصوص في فترة الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي, وما يعانيه من بطش ولا سيما بعد مرحلة الاحتلال الأمريكي بعد حقبة التسعينيات والانقسامات, يصدر لنا الشاعر (هاني أبو مصطفى) عن حس مملوء بالاضطراب والاغتراب في آنٍ معاً ليصور لنا مشهداً حسيا مملوء بالاغتراب والقلق متناصا مع القرآن الكريم في قصة يعقوب النبي (ع) عند فقده ولده يوسف النبي (ع) فيقول:

حتى القميص شممته يا سيدي
ماذا رأيتُ سوى الغدِ المجهول
وهنا دفنت على التراب قصيدةً
أنشدتها فهنا يكون مقيلي ...
هذا العراقي الطريد جراحه
سوداء مثل حجارة السجيل
ما في صحيفته سوى عِشْ حافلاً
بالمجد محفوظاً من التنكيل[٢٥].

فلما كان المقام أشبه بالفرقة والانقسام والاضطرابات بمقام استغاثة النبي يعقوب (عليه السلام) بالله تعالى مما حلّ بساحته على أثر فراق ولده النبي يوسف (عليه السلام)، لذلك يستدعي الشاعر هنا قصه القميص مقارناً بين مشهدين متقاربين تقاربا دينيا ينمُّ عن طبيعة العلاقة بينهما ويوحي بالحس الصوفي الذي يشتغل هنا، بحيث انصرف "التداخل. النصي هنا إلى المستوى الدلالي الخالص عن طريق ما يسمى التوليد"((٢٦). إذ نقف على النص القرآني المتعلق بقصة القميص مع النبي يعقوب (ع) لنستنتج دلالة منه في النص الشعري ، إذ أشار الشاعر عن طريقه إلى نقيض ما وقع ليعقوب(ع). فلما شم يعقوب (ع) القميص تباشر بمقدم ولده غير أنَّ شم العراقي للقميص لم يكن ليعكس تلك البشارة, بل إنّه أدَّى إلى الشعور بالاغتراب أكثر فأكثر وزاد الاحساس بالقلق والحيرة والاضطراب، وقد أحالنا على ذلك المعنى قول الشاعر:

"حتى القميص شممتهُ يا سيدي *** ماذا رأيتُ سوى الغد المجهول"

وكما نراه يوظف ما يسمى تراسل الحواس في هذا النمط الاستعاري، فكان الأليق بمقام شم القميص أن يقول (ماذا شممت سوى....) لا (ماذا رأيت...), ولكنّه أحدث تداخلا بين حاستي الشم والرؤية، تلك الخاصية الرمزية التي "تعطي المسموعات ألوانا وتصير المشمومات أنغاماً وتصبح المرئيات عاطرة"(٢٧)، محدثا مفارقة من نوع خاص، ولا سيما عندما أناب الشاعر حاسة البصر في إدراك رائحة القميص مناب حاسة الشم لتحقيق الدلالة التي يطلب بها التأكيد على سبب شعوره بالغربة والقلق من المستقبل. فهو لم يزل مستقبلاً مظلماً لا يبدو تحت أديم سماته شيء من النور. ومن خطاباته الأخرى المؤذنة بهذا النوع من الاضطراب والقلق الناجم عن اتصاله بقضايا مجتمعه قوله:

أقول وقد زادت
عليّ الشدائدُ
أيا جارةً أين الخليل المساعِدُ
أنا الفارسُ
الثاني الذي طال اسْرُهُ
وما زارني إلا الحمام المطارد
إلى كل أشعاري التي
قد كتبتها
لقد أتعبتني في العراق القصائدُ
وما سيف تلك الدولةِ
اليوم صاحبي

وليس له عندي احترام يزاودُ[٢٨].

فليس من السهل على الشاعر وهو صاحب الإحساس المرهف أن يجتمع عنده من الشعور الجياش والوازع الديني القوي كالشاعر هاني أبو مصطفى أن يمر بقضية وطنه وما حلَّ به مرور الكرام من دون إعطاء القضية حقها من وقته وجهده وشعوره. وهو هنا يدلنا على شدة تأثره بما حلّ به وبوطنه وكان من نتائج انشغاله به وقلقه عليه أن طرد منه طردا معنويا، فأسفر طرده منه كالحمام الغريب المطارد أن تزايد في نفسه الإحساس بإحاطة الشدائد به من كل جانب ومع ما يقسو عليه من الحسرة والألم والقلق على مصاب وطنه ، إذ نراه يتحدث عن نفسه حديث الفارس، فهو لم يزل يملك الطاقة التي تمكّنه من المقاومة, وتلك روح المتصوف الحق الذي يستتبع هذه الثورة الروحية حيث يستلهم منها القوة المؤيدة للمطالبة في العيش بالأمان[٢٩]. وحديثه بروح الفارس يوحي باشتعال جذوة المقاومة لديه طلبا للحرية التي أدى افتقاده لها إلى الشعور القوي بالقلق والغربة في وطنه لرفضه الواقع الأليم، مما أدى إلى تركه الوطن والفرار منه إلى حيث وجد ما اعتقد أنه الخلاص ، ولعل إيراده لقوله: "... وما زارني إلّا الحمامُ المطاردُ..."، إشارة منه إلى هذا الجو النفسي الموحش الذي يقع فيه أثر أسره في وطنه, فهو يضمّن قوله: "... وما زارني إلا الحمام المطارد" الذي يحمل مفارقة ضدية أنتجها بتلك الثنائية التي تعرض لها تحت ما يسمى (التجريد البلاغي)[٣٠]، حيث ذكر زيارة الحمام المطارد وهو يعني الإشارة إلى أنَّه نقيض شيء بشيء، فإثبات الزيارة –حصرا– للحمام تنفيها عما سواه من الناس, ولعل هذا يكون واحدا من أسباب شعوره بالاغتراب في وطنه, فمع أنَّه أسر بسببه وعندما طلب الفداء لم يلق منهم ما يدل على تضامنهم معه حتى الزيارة كانت من غريب لغريب.

ومما يبرز لنا مدى ما استولى عليه من شعور الاغتراب ، وإحساس العزلة والانفراد الذي لم يجد إلى علاجه سبيلا قوله:

يا قربة الله أين الماء فاسقيني
من ذلك الماء لكن هل ستروِيني
يبست تيها ومالي بعد أيُّ فم
فحالة البؤس تسري في شراييني
والكل عني بذاك اليوم قد هربوا
إلاك تبحث عني قلبي لتحييني
أحبك اللهَ اسما نفسه صفةً
ذاتا رأيتك فيها سرَّ تكويني[٣١].

يلامس الشاعر في هذه القصيدة الواقع الذي يدرك أنه لا عيش له بعيدا عنه, ويروح ليعبر عنه

بقوله: "يا قربة الله..." بإضافة القربة إلى الله تعالى إضافة محضة تدل على أن طلب الماء الذي هو سر الحياة مبعث الوجود لا يجوز إلا من مالكه الأوحد وهو الله تعالى, إقرارا واعترافا لله تعالى بملك الحياة والموت. غير أنَّ (الماء) و (القربة) فيها إشارات رمزية إلى الارتواء المعنوي الذي يروي النفس والقلب لتصبح مطمئنة بعد القلق والاضطراب الذي يعاني منه الصوفي في رحلته إلى الله تعالى, لذلك "الصوفي يشعر بأنّ العالم الذي يعيشه حلم زائل, يدفعه للتمعن هربا نحو عالم آخر, يفجر مباهج ذاته الكامنة"(٣٢), فشاعرنا في هذه الأبيات يستفهم بأسلوب النداء, هل أنَّ رحمة الله ستشمله لتروي ظمأ روحه المتشوقة للقاء محبوبها الأكمل والأجمل والفوز برضوانه. والاستفهام عن ذلك تعجبي في إشارة تفضي إلى الدهشة والحيرة من امتلاك قدرة إيقاع الفعل في الحالة التي لا يتوقع فيها إيقاعه (٣٣)، كما يشير هذا الاستفهام التعجبي المضمن في قوله : "... لكن هل ستروينى" دلالة أخرى تحيل على إحساس الشاعر بالاغتراب والوحشة, التي يدرك أنَّه لن يجد منها بدلا إلَّا أن يكون في معية الله تعالى؛ ولذا كان الخطاب موجها إلى الله وحده من دون سواه, وهو في ذلك يوافق الصوفيين الأوائل في توجههم إلى الله تعالى, وهو بذلك يبحث عن التفاني في الذات الإلهية كعادة المتصوفة؛ ليشعر بالأمان والأنس الدائم في ملاقاته لله تعالى, فيتخلص بذلك من القلق والاضراب النفسي, وهذا ما نلمحه في قوله: "والكل ... قد هربوا إلاك تبحث عن قلبي لتحييني", وهذا يؤكد أنَّه يعيش تجربة قاسية لا فرار منها إلَّا في حالة استمراره في صحبة الله تعالى, فـ "هي ثمرة من ثمار التجربة الروحية المبطنة بين العبد وربه, بمعنى أنها ذوق من الأذواق أو المواجيد الصوفية أو هي نتيجة لكشوفات أو تجليات إلهية على قلوب العارفين"(٣٤), إذ إنَّ الشاعر يريد بذلك الذوبان في الذات الإلهية؛ لأنَّ الله تعالى هو المحيي والمميت والقاهر ...., وغير الله الله تعالى كلهم قد هربوا من نصرته, وهذا ما نجده في قوله: "والكل عني بذاك اليوم قد هربوا ...", ومن ثَمَّ يختمها بقوله: "أحبك الله ... ذاتا رأيتك فيها سر تكويني", ليعلن بذلك عن حبه الحقيقي لمن يستحق ذلك الحب دون سواه, ومتفانيا في الذات الإلهية, ومتلذذا ومستأنسا بالقرب منها. وهذا ما يفضي إلى قمة التصوف الذي ينشده الشاعر (هاني أبو مصطفى).

الخاتمة

يمكن إجمال أبرز نتائج البحث بما يأتي:

- يعد الشاعر هاني أبو مصطفى من أبرز الشعراء المعاصرين الذين وظّفوا شعرهم في حل مشاكل المجتمع مستغلا الشعر الصوفي الذي وجده الملاذ الآمن لذلك.
- جسد الشاعر هاني أبو مصطفى في شعره من خلال الحياة والظواهر النفسية حقيقة التصوف الذي يؤدي بالإنسان إلى التوحد في الذات الإلهية, ويفضي به إلى أن يكون صورة من صور تجليات قدرة الله

تعالى, مما يفضي إلى صلاح الإنسان والمجتمع.

- تعتبر الحياة والظواهر النفسية من الظواهر الصوفية المتأصلة في شخصية الشاعر هاني أبو مصطفى, وذلك ما نلمحه جليا في أكثر أشعاره.
- جسد الشعر هاني أبو مصطفى من خلال الرمز والغموض الحياة والظواهر النفسية خير تمثيل؛ لاعتقاده بقصور اللغة العادية في إيصال ما يعتقد به إلى المتلقي, وهذا ديدن الشعراء الصوفية السابقين.
- تعتبر ظاهرة الانسحاب من الحياة من الظواهر الصوفية البارزة في شعر هاني أبو مصطفى.
- وظف الشاعر هاني أبو مصطفى شعره لإبراز إحساسه العنيف بالقلق والاغتراب النفسي؛ لرفضه القاطع لما يسود في مجتمعه من فساد وانحراف وابتعاد عن المحبوب الحقيقي –الله سبحانه وتعالى– ومظهرا بذلك رفضه وتمرده على الواقع.

الهوامش:

١– هاني أبو مصطفى: هو الاسم الأدبي للشاعر العراقي البصري المعاصر هاني رضيو عبد الله الشريفي, وهو شاعر وكاتب وصحفي ومسرحي, ولد عام: ١٩٧١, في قضاء الزبير, وله حضور بارز على الساحة الأدبية, ويعد من الشعراء المحافظين فيما يكتبون في أسلوب الشعر العمودي, وقد صدر له ثمانية دواوين في الشعر العمودي.

٢– الرفض والتمرد في الشعر الإسلامي والأموي, علي محمد عبد الرضا "الخطيب", أطروحة دكتوراه, ص١٩٧.

٣– رائحة المناديل , هاني أبو مصطفى ، ص ٥٨.

٤– تقنية التصوف في شعر هاني أبو مصطفى ، خالد مرزوق الدعجاني ، م. فكر وإبداع ، القاهرة ،عد: (١٤٩) لسنة ٢٠٢٣: ص ١٨٥.

٥– رائحة المناديل , هاني أبو مصطفى ، ص ٥٨.

٦– مع الشعراء ، زكي نجيب محمود ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان،١٩٩٩، ص ٣.

٧– مقابلة مع الشاعر هاني أبو مصطفى أجريت مع الشاعر في مبنى مركز دراسات البصرة والخليج العربي بحضور السيد المشرف الأستاذ الدكتور صباح عبد الرضا أسيود بتاريخ ٢٠/ ١١/ ٢٠٢٢.

٨– ينظر: الحسين بن منصور الحلاج شهيد التصوف الإسلامي، د. طه عبد الباقي سرور, مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة ،,٢٠١٤ ص ١٥٣ – ١٥٤.

٩– الإله تابو، هاني أبو مصطفى ، ص ١١٥.

١٠– الإله تابو, هاني أبو مصطفى, ص ١٦– ١٧.

١١– الحسين بن منصور الحلاج شهيد التصوف الإسلامي ، د. طه عبد الباقي سرور, ص٥٢.

١٢–بهذا أوصاني والدي، هاني أبو مصطفى، ص ١٠.

١٣- تقنية التصوف في شعر هاني أبو مصطفى، د. خالد الدعجاني ص ١٩٤.
١٤-التناص في شعر محمد صالح عبد الرضا, علي صباح كريم الأسدي, ص٢٠٢.
١٥- الفتوحات المكية ، ابن عربي ، ص ١٢٤.
١٦- تقنية التصوف في شعر هاني أبو مصطفى، ، ص ١٩٣.
١٧-بهذا اوصاني والدي، هاني أبو مصطفى, ص ٢٤ - ٢٥.
١٨- الشعر الصوفي في القرن الثالث الهجري, مريم عبد النبي عبد المجيد, ص ٥٠.
١٩- الشعر الصوفي في القرن الثالث الهجري, مريم عبد النبي عبد المجيد, ص ٥٠.
٢٠- طبقات الصوفية, السلمي ، تح: نور الدين شريبة، ص ٢٧٨.
٢١- رسالة القشيري، القشيري، تح: عبدالحليم محمود، ص ٢٣٢-٢٣٣.
٢٢- أكذب العاشقين, هاني أبو مصطفى, ص١٢.
٢٣- اللمع في التصوف، الطوسي ، ص ٧٥.
٢٤- الشعر الصوفي في القرن الثالث الهجري, مريم عبد النبي عبد المجيد، ص : ٦٦-٦٧.
٢٥- الأدب في التراث الصوفي، د. محمد عبدالمنعم خفاجي، ص٢٦١.
٢٦- بوح العصافير, هاني أبو مصطفى، ص١٩-٢٠.
٢٧- قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني, د. محمد عبدالمطلب، ص ١٥٢.
٢٨- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ص ٢١٩.
٢٩- آخر الدراويش، هاني أبو مصطفى، ص ٧-٨.
٣٠- ينظر: التصوف في الأدب العربي المعاصر،ص٢٢
٣١- ينظر: علم البديع، د. عبد العزيز عتيق، ص ١٨٩.
٣٢- رائحة المناديل, هاني ابو مصطفى , ص٣٣.
٣٣- الشعر الصوفي في القرن الثالث الهجري, مريم عبد النبي عبد المجيد, ص٦٦.
٣٤- ينظر: علم المعاني، عبدالعزيز عتيق، ص ٩١.
٣٥-موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان, محمد الكسنزان الحسيني, ج١, ص٣٧.

المصادر والمراجع:

أولا: الدواوين الشعرية:

- آخر الدراويش, هاني أبو مصطفى, دار كيوان, السويداء, سوريا, ٢٠١٩.
- أكذب العاشقين, هاني أبو مصطفى, دار إيليا للنشر والتوزيع, ٢٠٢١.
- الإله تابو, هاني أبو مصطفى, دار النيل والفرات للنشر والتوزيع, ٢٠١٨.
- بهذا أوصاني والدي, هاني أبو مصطفى, دار النيل والفرات للنشر والتوزيع, ٢٠١٨.
- بوح العصافير, هاني أبو مصطفى, منشورات أحمد المالكي, العراق, بغداد, شارع المتنبي, ٢٠١٨.
- رائحة المناديل, هاني أبو مصطفى, منشورات أحمد المالكي, العراق, بغداد, شارع المتنبي, ٢٠١٨.

ثانيا: الكتب النقدية:

- الأدب في التراث الصوفي, د. محمد عبد المنعم خفاجي, دار غريب, القاهرة, ٢٠١١.
- الحسين بن منصور الحلاج شهيد التصوف الإسلامي, د. طه عبد الباقي سرور, مؤسسة هنداوي, المملكة المتحدة, ٢٠١٤.
- الرفض والتمرد في الشعر الإسلامي والأموي (دراسة موضوعية وفنية), علي محمد عد الرضا "الخطيب" أطروحة دكتوراه , كلية الآداب, جامعة البصرة, جمهورية العراق , ٢٠٢٣.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب, ابن العماد الحنبلي, المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع, د. ت.
- الشعر الصوفي في القرن الثالث الهجري, مريم عبد النبي عبد المجيد, إصدارات مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية, بغداد, ٢٠١٢.
- طبقات الصوفية, السلمي, تح: نور الدين شريبة, دار المعارف, القاهرة, ١٩٥٣.
- علم البديع, د. عبد العزيز عتيق, دار النهضة العربية, بيروت, لبنان, د, ت.
- علم المعاني, د. عبد العزيز عتيق, دار الشروق,, القاهرة, ٢٠٠١.
- الفتوحات المكية, ابن عربي, تح: لجنة مختصة بتحقيق التراث, دار صادر, بيروت, ١٩٩١
- قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني, د. محمد عبد المطلب, مكتبة لبنان, الشركة المصرية العالمية, لونجمان, ١٩٩٥.
- اللمع في علم التصوف, أبو نصر السراج الطوسي, تح: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور, دار الكتاب الحديثة, القاهرة, ١٩٦٠.
- مع الشعراء, زكي نجيب محمود , دار الشروق, بيروت, لبنان, ١٩٩٩.
- موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان, محمد الكسنزان الحسيني, دار المحبة– دمشق, دار آية– بيروت, ط١, ٢٠٠٥.
- النقد الأدبي الحديث, د. محمد غنيمي هلال, مطابع سجل العرب, القاهرة, ١٩٧٣.

- تقنية التصوف في شعر هاني أبو مصطفى, خالد مرزوق الدعجاني, مجلة فكر وإبداع, القاهرة, عد: ١٤٩\ ٢٠٢٣.
- التناص في شعر محمد صالح عبد الرضا, علي صباح كريم الأسدي, مجلة الخليج العربي, مج: (٥٢), عد: (٤), ٢٠٢٤
- التصوف في الأدب العربي المعاصر, مقال منشور, شبكة مركز الأهرام السياسية والاستراتيجية, ٢٠١٧. ettps\\acpss.ahram.org.eg\news\16363.a

المقابلات الشخصية:

- مقابلة مع الشاعر (هاني أبو مصطفى) أجريت في مبنى مركز دراسات البصرة والخليج العربي بحضور الدكتور صباح عبد الرضا إسيود, بتاريخ: ٢٠٢٢\١١\٢٠